

المحاضرة الخامسة ٢٠١٣/٣/٢٧ مدرسة النقد الاجتماعي والماركسي

مدرسة النقد الاجتماعي والماركسي

النقد الاجتماعي هو ذلك النقد الذي يعتمد على نظريات علم الاجتماع . ولعل النقد الماركسي هو اكثر اشكال النقد الاجتماعي انتشارا ، وهو يهدف الى بيان طريقة تحديد الاثر بواسطة المجتمع الذي يظهر فيه ، وله طرق متنوعة في دراسة الاثر.

الاساس النظري:

الفلسفة التي قامت عليها هذه المدرسة هي الفلسفة المادية الجدلية، والجدلية الماركسية ، وفكرة التطور ، ومفهوم الحداثة.

أ- الفلسفة الجدلية المادية : Dialectical Materialism

وهذه الفلسفة تعتمد على على المرتكزات محددة وهي الجدل (الديالكتيك Dialectic) والنظريات العلمية. والديالكتيك (الجدل) مشتقة من الكلمة اليونانية (ديايكو) التي تعني المناظرة . وكان اليونانيون القدماء يعنون بها " فن الوصول الى الحقيقة من خلال النقاش عن طريق كشف التناقضات في اقوال الخصم ودحضها." والنظريات العلمية التي قامت ارتكزت عليها هذه الفلسفة في القرن التاسع عشر هي:

- ✓ اكتشاف الخلية الحية نظرية تقول ان الخلايا الجديدة تتشكل من الخلايا الأخرى القائمة، والخلية هي الوحدة الأساسية في التركيب والوظيفة لدى جميع الكائنات الحية.
- ✓ -قانون حفظ وتحويل الطاقة
- ✓ -نظرية دارون في نشوء وارتقاء الانواع

الجدلية الماركسية :

تعتمد هذه الجدلية على فكرة محددة هي " ان المجتمع البشري يتطور بسلسلة من التناقضات التي تشمل جميع مناحي الحياة : السياسية , الاجتماعية ، الاقتصادية ، والثقافية والفنية " وللجدلية قوانين ثلاثة رئيسية:

- ✓ -قانون وحدة وصراع الاضداد.
- ✓ -قانون الانتقال من التغيرات الكمية (quantity) الى التحولات الكيفية (quality)
- ✓ -قانون نقض النقيض.

فكرة التطور

تتخذ طابعا تصاعديا ومستمرًا وبدورات (حلقات مقفلة) تتحدد بعلاقة الكم مع الكيف ، وان هذا التطور لايجري بشكل مستقيم وخطي ، فمفهوم نقض النقيض نفسه يعبر عنه بالشكل الحلزوني المتعرج الذي يسير فيه التطور . وقد اقيم نصب فني في المعرض العالمي الثالث في موسكو ١٩١٩ يوضح الرمزية للتطور الاجتماعي حسب فكرة التطور هذه.



برج ناتلين مشروع لبرج تم اقتراحه عام ١٩١٧ م. وقدم نموذج المشروع المعماري الروسي فلاديمير ناتلين عام ١٩١٩ م في ذكرى المؤتمر الاشتراكي العالمي الثالث . كمنى مرتفع ورمز تذكاري للشيوعية العالمية . يحتوي على مكاتب ومكتب تلغراف ومطاعم وكانت هذه إشارة صريحة إلى نزعة حداثة لتمجيد الآلة و الإنجازات التكنولوجية للعصر الصناعي،

-مفهوم الحداثة

اختلف المفكرون الماركسيون في تفسير هذا المفهوم ، اذ سعى ماركس الى تفسير الحداثة على انها " ترتبط بالعنصر الابدي أي ثوابت الامور ,التي تحتل موقعا كلاسيكيا . في حين فسره بودلير (المفكر والشاعر الفرنسي) بالمتغيرات النسبية الظرفية التي يمكن ان تجد نفسها في واحد من هذه المفاهيم او في كلها معا : الحقبة ، الموضة mode ، الميول ، الاخلاق.

ترجمة الفكر الاجتماعي الى نظرية العمارة

العمارة البنائية Constructivist Architecture قامت الحركة البنائية على اساس الفلسفة المادية الجدلية وهدفت الى حل المشاكل الاجتماعية ومحاربة الاستغلال وتحقيق العدالة الاجتماعية وقد اكتسبت العمارة دورا ناشطا يرمي الى احداث التغيرات في الواقع الاجتماعي



محتوى النظرية : التعبير عن
التغيرات الحاصلة، المنجزات العلمية،
التقدم التكنولوجي، محاربة الصيغ الجمالية
التقليدية على أنها من رواسب النظرة
الرجعية إلى العمارة. أما النظام الشكلي
المتبع فقد سعى إلى التشبه بالمكائن على أنها
رموز للتقدم العلمي، رافقتها قواعد شكلية
تبعّت المبدأ نفسه. فالمفردات المعمارية
[الأعمدة، الشبابيك، أنابيب التهوية]
حملت الخاصية المكائنية نفسها وانتمت إلى
لغة التعبير ذاتها، وأصبح الجزء يتمتع
بخاصية الكل عينا. كما أن ارتباط
المفردات ببعضها البعض أو التركيب
الشكلي syntax لم يخرج عن القاعدة بل
اتضح فيه العلاقة الميكانيكية نفسها^(٢).

٣- أثر الفكر الاجتماعي في النقد المعماري

من الطبيعي أن يكون لهذا التوجه الفكري أثر بالغ لدى نقاد العمارة، لا سيما وأنه يعتمد
الجدل والنقد في التوصل إلى الحقائق في نظريته التي اعتبر النقد ركيزة مهمة من ركائزها. إذ أن
الماركسية قامت على أساس محاربة المعتقدية أو الدوغمائية Dogmatism (وهي حقائق موحى
بها، مطلقة ونهائية تخلق عالياً فوق البشر وتاريخهم^(٤))، وهذه الحقائق لا يمكن نقدها أو
مناقشتها).

فكر الحداثة والنقد الاجتماعي: كان للفكر الاجتماعي تأثير واضح على فكر عمارة
الحداثة وخاصة في أهدافها الاجتماعية وتفاعلها مع معطيات إقتصادية واجتماعية جديدة. يؤكد

منظر الحداثة سيغفريد غيديون على «حقائق ثابتة تجدد طريقها إلى الظهور
مهما كانت المحاولات للسيطرة عليها وإخفائها». ويشخص هذه الثوابت على أنها:

- الإمكانيات الحديثة في البناء؛
- المواد البنائية المصنعة بالجملة؛
- التغيرات في النظام الاجتماعي^(١).

يرى غيديون أن مهمة المؤرخ تكمن في استقاء روح العصر (من الثوابت)، مع تبيان
الظواهر المتنوعة التي تعبر عنها.

الأبعاد المضافة إلى نقد العمارة: يتصدر قائمة نقاد العمارة الماركسيين الناقد مانفريدو تافوري الذي يُعتبر من أوائل نقاد العمارة الذين وضعوا نظرية خاصة بتقديم للعمارة، ولم يكتفِ باستخلاص منهجه النقدي من نظرية معمارية قائمة.

يُطلق تافوري على نقده تسمية Operative Criticism^(٢) المشتقة من أسلوب في النقد الأدبي يفسره الناقد الأدبي بلاك مور R.P.Blackmore على أنه «أشبه بعمليات جراحية يقوم بها جراح ماهر دون أن يسبب أي تمزق أو تشويه في الأنسجة الحية»^(٣).
أما الأبعاد التي يضيفها هذا الناقد على العمارة أثناء تفسيرها ونقدها فهي:

- رُقي العمارة إلى مستوى النشاطات الفكرية الأخرى المميزة لفترة تاريخية. فمثلاً، يُناقش تافوري عقلانية القرن السابع عشر من خلال أعمار المعمار بيرانيزي Piranesi، مولياً إياه قدراً من الأهمية مساوياً للفيلسوف ديكارت والموسوعي ديدرو^(٤)؛
- أهمية العمارة كونها جزءاً مكتملاً للثقافة. إذ يستبعد الكاتب أية اقتراحات تدور حول تحجيم العمارة على قدر دورها التفعلي أو التقني^(٥).
- دور لغة العمارة في توضيح العلاقات الاقتصادية والاجتماعية. إذ تُعتبر العمارة المستهلك الأول للثروة الاقتصادية، كما يتم توزيعها من جهة أخرى رمزاً لقدرة وسطوة هذه الثروة. أما النقطة الأخرى فتخصّص العلاقات الاجتماعية، وتكمن في كون العمارة الوسيلة الفعلية لتقسيم الأرض وتوزيعها ما بين الناس، وبالتالي هي المحدد الفعلي للعلاقات الاجتماعية. ومن هنا فإن الدراسة الجادة في تحليل هذه الجوانب من العمارة من شأنها أن تؤدي إلى حقيقة مهمة ألا وهي إيضاح الإيديولوجيا الكامنة خلف هذه العمارة. ويُعنى بالإيديولوجيا هنا النظام الفكري - السياسي الذي يحدد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية^(٦).

٤ - المنهج النقدي

يتمثل بصورة رئيسية بالخطوات التالية:

- (١) دراسة علاقة القواعد الشكلية للأثر المعماري بانيثاقه الاجتماعي أي القيم الاجتماعية (باللجوء إلى تقنيات لغوية، سيميائية، دلالية)؛
 - (٢) دراسة علاقتها بالإنسان ولكن بالتخلي عن علم النفس المجرد والإستعاضة عنه بالشعور بتاريخية الوجود الإنساني (دراسات مادية جدلية في التاريخ)؛
 - (٣) التوصل إلى الإيديولوجيا المتضمنة، وهي التي تُعتبر الأساس الجوهرية لكل شيء حسب المفهوم الماركسي، من خلال دراسة الظواهر المحيطة بالعمارة.
- ملاحظة: الشكل في العمارة حسب المفهوم الاجتماعي يكون مدوّن مسبقاً في المعطيات الاقتصادية والاجتماعية، والمعمار ليس خالقاً للشكل بقدر ما هو كاشف عنه، إذ ينحصر دوره في تسليط الضوء على تلك المعطيات، وهو يعرض نفسه هنا كانعكاس واعي للواقع ليس إلّا.
- الثوابت: لا يعترف الفكر المادي الجدلي بوجود الثوابت أي الحقائق الأزلية. إلا أن الحقائق الثابتة بالنسبة للقرن الحالي تكمن في التقدم الحاصل في المنجزات العلمية وتطور الصناعة والتحويلات الاجتماعية... وجميعها تتفاعل تفاعلاً جدلياً مع العمارة.

المصطلحات النقدية:

تشترك المناهج النقدية في بعض المصطلحات التي تخص علوم السيمياء واللغة والنفس... إلا أن المصطلحات الخاصة بهذه المدرسة مستعارة في معظمها من نظريات إقتصادية إجتماعية، منها ما يخص الفكر الإجتماعي وتصنيفاته (الفكر الماركسي، الفكر المعتقدي (الدوغمائي)، الفكر البراغماتي، الفكر الرأسمالي) أو التصنيف الطبقي (البورجوازي، الثوري، الراديكالي... إلخ) أو الحالة الإجتماعية (الاستلاب / الاغتراب، الطوباوية / المجتمع المثالي). ويظل مصطلح الجدلية (الديالكتيك) عنصراً أساساً في جميع الجوانب النقدية.

٥ - تطبيقات نقدية:

سنأتي على ذكر ثلاثة نقاد معماريين ماركسيين إلا أن لكل منهم أسلوبه الخاص في ترجمة الفكر الماركسي على صعيد العمارة.

موريس كولوت Maurice Culot: مؤرخ وأستاذ جامعي وعضو في جمعية تخطيطية، يؤكد على دور العمارة الناشط في اتخاذ موقف من الاكتساح الامبريالي للمدن وتجريدها من إنسانيتها وطابعها التاريخي^(١).

- إنه يوظف العمارة كأداة لممارسة الإصلاح السياسي.

- ويجهّد لعب دور المحرّض الذي يسعى إلى تحفيز الرأي العام ضد الممارسات اللاإنسانية في العمارة.

ليون كريير Leon Krier: معمار ممارس له مواقف نقدية من عمارة الحداثة لما سببته من حالة الاستلاب لدى الإنسان، فيحاول في المقابل تجسيد صورة لمجتمع إشتراعي متوازن. يمكن تلخيص طروحاته بما يلي:

١) على العمارة أن تعبّر عن قيم متعارف عليها إجتماعياً، وتسعى إلى إنقاذ التماسك الإجتماعي بمستويات عملية ورمزية [لتصحيح الصورة العامة التي تعاني من انقسامات إجتماعية ولمحاولة إعادة التجانس المفقود في المجتمع]^(٢)؛

٢) في اللغة المعمارية قيمة يجب الحفاظ عليها والعمل على استمراريتها. وهذا ينطبق على الشكل المعماري والأنماط الوظيفية الإجتماعية التي يسعى كريير جاهداً إلى إعادة توظيفها في محاولة منه لمحاربة العمارة الغريبة والموحشة Alien Architecture^(٣).

إلا أنه يلاحظ أن هذا الناقد تبني صورية picturesqueness معينة اقترنت لديه بالفكر الاجتماعي، دون أن يسعى إلى تفهم الأسس النظرية لهذا الفكر... مقترباً في تطبيقاته من نظرة المدرسة الواقعة الاشتراكية.

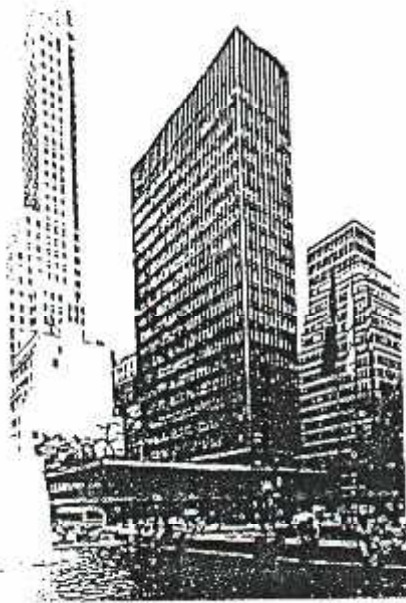
مانفريدو تافوري **Manfredo Tafuri**: استعرضنا آنفاً إسهاماته في إغناء نظرية النقد الاجتماعي والتي تتضح في تطبيقاته النقدية ومنها هذا المثال الذي بات يمثل عملاً معروفاً ونعني

به مبنى ليفر **Lever House** للمصمم غوردون بونشافت، من مكتب **S.O.M.** للهندسة المعمارية.

(١) يستعرض الناقد تافوري الظاهرة بشكل عام محاولاً استنباط المنطلق الفكري (الإيديولوجي) من فكرة الشكل المعماري [يتحول الشكل هنا إلى رمز للمنطلق الفكري]. ويبدأ استعراضه النقدي كما يلي:

«انجهت العمارة العالمية إلى البساطة في الخمسينات، فقامت بنشر نماذج فعلية لعمارة البيروقراطية في معظم أنحاء العالم وبأشكال هندسية مبسطة. لم يكن هناك غرض واضح في تبني تلك البساطة، إلا أنها كانت وسيلة أكيدة لتسهيل عملية التصميم بالجملة لغرض سد طلب كمي»^(١).

يلاحظ هنا تأكيد الناقد تافوري على مبدأ التحولات النوعية وفقاً لقوانين الجدلية، أي أن التغير الكمي يسبب تغيراً نوعياً [إلا أنه في هذه الحالة يمكن اعتبار التغير النوعي سلبياً - رجعياً].



شكل ٢ - ١٢ مبنى ليفر، بونشافت،
نيويورك ١٩٥٠ - ١٩٥٢

٢) يدخل الناقد في تفاصيل العملية الإنتاجية

لهذه الأعمال المعمارية لتبيان تفاعل العمارة (جدليتها) مع الظروف المحيطة بها: «تغيرت العملية الإنتاجية للعمارة، فبعد أن كانت تُصمَّم من قِبَل معمار يرمي إلى إيصال أفكاره إلى المجتمع العالمي، تغير الوضع إذ استولت شركات ضخمة على مهنة العمارة، وهذه تضم عدداً كبيراً من الممارسين حيث يخضع إنتاج التصميم لعمليات تقترب من طبيعة الإنتاج الصناعي القياسي Assembly Line Standards»^(٢).

يرى الناقد أن المكتب الأنف الذكر S.O.M، شأنه شأن بقية مكاتب الشركات الضخمة التي تتحدد أهدافها بنقطتين أثنتين: العمل بسرعة قصوى، والإيفاء بمتطلبات تكنولوجية على مستوى عالٍ. [الإنتاج الأكثر كفاءة بأقل التكاليف الممكنة. . . هو أسهل الطرق للحصول على أعلى منفعة].

٣) الإيديولوجيا المتضمنة: جسدت هذه العمارة فلسفة براغماتية تقع في صلب فكر

الراسمالية . ثم يتدرج تافوري بتحليلاته ليتطرق إلى جملة من المواضيع التي تصب في الموضوع نفسه :

- نقائية الأشكال : تعكس سلوكاً مباشراً وغير مكثرت بالتخاطب والتواصل مع الفرد، إلى الحد الذي اقتضت فيه لغة العمارة على غلاف curtain wall أو قشرة صامتة تفتقر لأدنى مستلزمات التخاطب البصري سواء على مستوى التعبير أو الرمزية أو حتى الدلالة المباشرة؛ ومع ذلك شكّلت هذه الواجهات الزجاجية المعادة والمتكررة [محاولة تقليد أبنية ميس فان ديروه دون الاكتراث بمبادئه النظرية] ظاهرة قامت بغزو جميع المدن الأمريكية، محوِّلة إياها إلى نماذج من «مدن بلا هوية»^(١).

- المعاني : يتوصل المتلقي، حسب رأي تافوري، إلى تفسير واحد لهذه العمارة : إنها انعكاس لمجتمع لا دور للفرد فيه سوى ذلك المخصص له كجزء من النظام العام؛ هذا إلى جانب نقطة مهمة أخرى، وهي أنه مسخَّر لخدمة ممارسة براغماتية لا تخدم سوى النخبة الاقتصادية إذ يقول : «تعتبر أبنية من هذا النمط رموزاً للكفاءة والخضوع لنظام لا سبيل للهروب منه، إذ تتضح حقيقة واحدة في هذه الأبراج الزجاجية . . . وهي القدر الجمعي الذي لا مناص منه»^(٢).

- وأخيراً يكرر تافوري حكمه على أثر آخر يُمثل أهدافاً إجتماعية سلطوية تسعى إلى حماية مصالح طبقة حاكمة، أي وبعبارة أخرى، يؤكد أن هذه العمارة قناع للممارسات سلطوية تستهدف الحفاظ على المفاهيم والمعتقدات الداعمة للواقع السياسي والإجتماعي القائم^(٣).

٦ - استنتاجات :

(١) تُقيّم مدرسة النقد الإجتماعي والماركسي تقييماً عالياً لما أضافته من عمق في الأبعاد الفكرية للنقد المعماري وبصورة بنيوية شمولية لا تنفصل فيها الصورة عن المفهوم الفكري .

(٢) هذا النقد قلماً يستعين بتقنيات لغوية وسيميائية في تحليل الأشكال، بل ويتعدى ذلك إلى إهمال اللغة الشكلية . . . وهو رد فعل متوقع من مدرسة ماركسية تنبذ النظرية الشكلية للعمارة، تلك النظرية التي تقترّب من مفهوم «الفن للفن» الذي ينظر للفن بمنأى عن جميع العوامل والظروف المحيطة به^(٤).

(٣) يُتهم بعض النقاد الماركسيين بالدوغمائية لفرضهم مفاهيم مسبقة على العملية النقدية مما يجعلها مسخرة لغاية وحيدة ألا وهي استبيان المنطلق الإيديولوجي . . . ومما يحوّل العمارة إلى مجرد نماذج لإيديولوجيات مختلفة. ولعل ذلك سببه عدم الرجوع إلى جوهر المدرسة الفكرية بل الاكتفاء بالشكل الظاهري لها.